

منهج الشك عند طه حسين ومرجعياته

أ. عمرو زاير

جامعة البليدة 2- الجزائر

ملخص:

أثار كتاب طه حسين "في الأدب الجاهلي" حركة نقدية كبيرة، اعتبرها الدارسون أكبر حركة نقدية عرفها النقد العربي الحديث، فقد أخذ الكتاب، والنقاد، وعلماء الدين على عاتقهم مهمة الرد على طه حسين، في دعوته إلى استعمال الشك كمنهج علمي في دراسته للشعر الجاهلي، من أجل الوصول إلى حقيقته، وقد استند في شكه هذا على مرجعية غربية تتمثل في "ديكارت" بفلسفته العقلية، حيث اتخذ من الشك منهجا للوصول إلى الحقائق في كل العلوم، وهو المنهج نفسه الذي تبناه قبله الفيلسوف أبو حامد الغزالي، ولكنه منهج مضبوط بقواعد فلا يُستعمل على إطلاقه، حتى لا تقع الدراسة في فوضى تقويض الثوابت، وهو ما وقع فيه فعلا طه حسين، لما اعتبر الشعر الجاهلي كله منحول من طرف الإسلاميين، مما خلق منعطفًا خطيرًا وتحولًا كبيرًا في مسار الفكر العربي والنقد الحديث عند العرب.

Abstract:

Taha Hussein's book entitled 'The pre-Islamic literature' has led to a large criticism movement. This latter is considered by scholars the greatest criticism movement ever known by the modern Arabic criticism. Writers, critics, religious scholars have taken in charge the mission to answer Taha Hussein when he called for using *doubt* as a scientific method to study the pre-Islamic poetry in order to understand its truth. He relied, in his suggestion, on a western reference represented in *Descartes* with his mental philosophy. Descartes adopted doubt as a method to attain reality in different sciences. It is the same method followed before him by the philosopher Abu Hamid El Ghazali. But it is a method following accurate rules since it is not used in an absolute way to avoid an anarchical undermining of constants. In fact, this is what Taha Hussein felled in when he pretended that the whole pre-Islamic poetry was in reality produced by Muslims and attributed to the pre-Islamic era. This has caused a dangerous turning point and a big change in the orientation of the Arab thought and criticism among Arabs.

مقدمة:

رفع طه حسين لواء الثورة على كل ما هو قديم، باعتباره ينتمي إلى فئة المستيرين الذين لا يقبلون على علوم القدماء على أنها علوم يقينية، بل يشكون في موروث الأمة الذي وصلنا عن طريق الرواية، ليس هذا فحسب بل يطالبنا أن نتخلى عن عواطفنا القومية والدينية حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه، فلا نتقيد إلا بمنهج البحث العلمي الصحيح، لأننا إذا لم ننس هذه العواطف سنكون محابين كما كان القدماء، مما أفسد علمهم.

إن الوقوف على حقيقة هذه المعركة الأدبية، ومواقف طه حسين المثيرة للجدل، يستدعي البحث عن المرجعيات التي استند عليها طه حسين في تبنيه لمنهج الشك، من أجل فهم مدى استيعابه للأسس التي قام عليها هذا المنهج، فهل استطاع طه حسين تمثل منهج الشك الديكارتى؟ وهل أحسن تطبيقه في دراسته للشعر الجاهلي؟ ما هي مرجعياته في ذلك؟ وهل استطاع الوصول إلى اليقين عبر هذا المنهج؟

قبل الإجابة على هذا السؤال يحسن إلقاء الضوء على ظاهرة النحل، التي عرفها الشعر العربي القديم، والتي جعلها طه حسين سندا هاما استند عليه ليبيح لنفسه الشك في كل الشعر العربي القديم، رغم أن هذه الظاهرة مست جزءا منه فقط، فقد فطن النقاد الأوائل لظاهرتي النحل والانتحال في الشعر العربي القديم، وعكفوا على دراسته وتخليص جيده من رديئه، بالأدوات النقدية التي كانت متاحة لهم آنذاك، ولكن طه حسين استخدم منهج الشك الذي يعتبره أداة فعالة في يد

المتنورين من الباحثين . وهو واحد منهم . يصلون به إلى حقائق الأشياء بطريقة مختلفة.

1- ظاهرة النحل في الثقافة العربية:

النحل ظاهرة أصابت قسما من الشعر العربي، اجتهد فحول العلماء وجرحوا الرواة الذين افتقدت فيهم الأمانة العلمية لمحاباتهم حيناً، وحطهم لآخرين حيناً وخلصوا أكثر الشعر العربي مما علق به من شوائب وزيف، إلا أنهم كانوا في بعض الأحيان يصرحون بصعوبة هذا العمل، خاصة إذا كان أصحاب هذا النحل من الشعراء، فموضوع النحل والانتحال في الأدب العربي القديم، كان محل جدل كبير بين الأجيال الأدبية، من خلال تعاملها مع النصوص القديمة، وخاصة الجاهلية منها. ويعتبر **طه حسين** من بين أدياء العصر الحديث الذين تعرضوا بالدراسة لهذه الظاهرة، وفي تناوله للشعر الجاهلي توقف **طه حسين** ملياً يستقرئ الإبداعات الجاهلية، يسبر أغوارها، ويتساءل عن مدى مصداقيتها، وقد أثار **بشكوه** هذا حفيظة الكثيرين، وفتح عيون الكثيرين على ضرورة مساءلة المسلمات.

كما طرحت كذلك فكرة الانتحال الأدبي عند اليونان، ويعود الأصل فيها إلى الدراسات التي قدمها الإخوة **كروازيه** في فرنسا، التي تدل على أن الأدب اليوناني منحول بحكم على أنه منقول بالمشافهة والعقل لا يمكن أن يقف عند الجمع والحفظ والترتيب، بالكيفية المطروحة لأنه ضرب من الاستحالة، بحيث لا يمكن أن ينقل ذلك بالحرفية التي جاء بها.

ويطرح طه حسين بشجاعة غير معهودة رأيه في موضوع النحل في الشعر الجاهلي، وهو يدرك مدى الصعوبة التي سيواجهها، وهو ينحو نحواً جديداً من البحث عن تاريخ الجاهليين ولغتهم وأدبهم لم يألفه الناس من قبل، وهو متأكد بأن فريقاً سيلقونه ساخطين عليه، وأن فريقاً آخر سيزورون عنه ازوراراً، ولكنه على سخط وازورار الفريقين يريد إذاعة هذا البحث بين طلابه في الأزهر⁽¹⁾ فيكون بتطرقه إلى قضية النحل في كتابه "في الشعر الجاهلي" قد أثار جبهة نقدية محافظة، لا تقبل الخوض في هدم الصرح الشعري الذي هو ديوان العرب، بمنهج الشك الذي لا يعرف المهادنة.

2- منهج الشك في مواجهة انتحال الشعر الجاهلي وتصديح طه حسين

لدراسة بأدوات جديدة:

اتبع طه حسين منهج الشك الذي دارت حوله معارك طويلة، أسالت الحبر الكثير منذ النصف الثاني من عشرينات القرن الماضي، في مواجهة مجتمع مستغرق في ثقافته التراثية، ونصوص ليس من السهل إحالتها على الشك والنقد، عند المحافظين الذين يرون أنّ الشعر ديوان العرب، وسينتهي هذا البحث إلى نتيجة غريبة، وهي أنه لا ينبغي تفسير القرآن وتأويل الحديث اعتماداً على هذا الشعر، وإنما العكس ينبغي أن نستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر

⁽¹⁾ طه حسين، في الأدب الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط2، 1962، ص61.

وتأويله (1). وإذا كان هذا المنهج الفني الذي استحدثه **ديكارت** للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث (2) قد أثار فضول المشتغلين بالمعرفة والبحث العلمي، فإنّ **طه حسين** وجد فيه الوسيلة لسير أغوار الشعر العربي، الذي كانت تدور حوله الكثير من أحاديث النحل، لقد وجد **طه حسين** نفسه أمام إشكالية كبيرة، عندما تصدى لظاهرة الانتحال؛ لما لهذا الموضوع من حساسية كبيرة عند الدارسين العرب المحافظين منهم خصوصا، إنها مغامرة كبيرة من أديب يتصدى لموروث أمة بكامله، معتمدا على منهج غريب لم يلق ترحيبا لا في الأوساط الأدبية ولا الدينية، ولعل الموقف الديني هو الذي أسبغ على الباحثين أنفسهم الشعور بتميز العرب ولغتهم عن الأمم السابقة، كونها أمة تمتلك الأداة والمضامين ولم تجد نفسها يوما في حاجة إلى الأمم التي من حولها.

إن اطلاع **طه حسين** الواسع على الثقافة الأوروبية القديمة ومقارنتها بالثقافة العربية، ومحاولة الغوص في ثنايا الثقافتين أوصله إلى جملة من الحقائق التاريخية والأدبية، منها ظاهرة الانتحال التي لاحظ وجودها بداية في الحضارة اليونانية ثم في الثقافة العربية، لذا جاءت آراء **طه حسين** المتمردة على المناهج التقليدية ووجهات نظر المحافظين، وهي ليست وليدة الصدفة بل هي مؤسسة على ثقافة اكتسبها في أوروبا، وهو مطلع على الفكر الأوروبي، كما أنه متشبع بالثقافة

(1) طه حسين، مصدر سابق، ص 67.

(2) طه حسين، مصدر سابق، ص 68.

الغربية قديمها وجديدها، وما فتح باب الشك عند طه حسين هو تلك الأخبار الأدبية والتاريخية التي تردت على ألسنة الرواة، وتلك القراءات والروايات المختلفة للنصوص الشعرية، وتلك الأشعار التي تنسب إلى أكثر من شاعر، وهي التي فتحت باب التساؤل عند ابن سلام وغيره حول مسألة النحل والانتحال، وهو التساؤل نفسه الذي تكرر بعد قرون طويلة عند طه حسين، الذي تصدى له بالدرس بأدوات جديدة بعيدا عن مناهج القدماء، متبعا طريق الأسئلة والاستدلال، ويعود شك طه حسين في النصوص القديمة إلى استقبال الرواة استقبال المطمئنين لرواياتهم، ويرجع سبب ذلك إلى أن المسلمين القدماء كانوا مخلصين في حب الإسلام، فأخضعوا بسبب ذلك كل شئ للإسلام، ولم يعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب أو لون من ألوان الفن إلا من جانب تأييده للإسلام، ونتيجة لذلك ما لاعم مذهبهم أخذوه، وما خالفه انصرفوا عنه⁽¹⁾ إن استقادة طه حسين من الثقافة الغربية وامتلاكه وسائل البحث الجديدة، من خلال استعمال منهج الشك الديكارتي في البحث الأدبي العربي لأول مرة، يكون قد عزم على تأسيس مرحلة العقل مع المذهب الجديد الذي استحدثته الجامعة المصرية، وهو المذهب الأوروبي بفضل الأستاذ كارلو نلينو، الذي كان ينحو في درس الأدب العربي نحو النقاد ومؤرخي الآداب الأوروبية الحية أو القديمة.

⁽¹⁾ طه حسين، مصدر سابق، ص 68.

يشير **طه حسين** في مقدمة كتابه " في الأدب الجاهلي " إلى منهجين سادا في عصره، وفي البيئة العربية عموما هما: المنهج الإيماني الاعتقادي المطمئن؛ والمنهج الاحتجاجي المشكك؛ الذي يرفض كل النتائج التي جاء بها القدامى. لأن المنهج عندهم يترك الأدب كما أنتجه القدماء بلا تغيير ولا تبديل، أما المنهج الثاني فيبحث عن الحقيقة الصعبة المنال بالمعطيات البحثية الحديثة، لأن الباحث معرض لأخطاء كبيرة، عكس القدامى الذين كثيرا ما يكون الطريق أمامهم سهلا، على حد تعبير المؤلف الذي يقول: "بين يدينا مسألة الشعر الجاهلي نريد أن ندرسها وننتهي فيها إلى الحق، فأما أنصار القديم فالطريق أمامهم واضحة معبدة، والأمر عليهم سهل يسير."⁽¹⁾ فهم مرتاحون لما وصلهم من شعر بل متأكدون من صحته، ولكن الأمر عند **طه حسين** يختلف. لقد توصل طه حسين إلى "الشك في كل شعر جاهلي من شأنه مجارة العصبية، وهي قاعدة من شأنها أن تضيع جميع الشعر الجاهلي لأنه ناتج كله عن العصبية. فهي قاعدة تعوق النقد ولا تنفعه، لأنها تعين على تضييع الصحيح من الشعر من غير أن تعين على تعيين المنحول. ولكن العكس أولى أن يكون هو القاعدة، فكل شعر جاهلي من شأنه تأييد العصبية فقد توفر فيه شرط أساسي من شروط الجاهلية."⁽²⁾ فأول شيء يفاجئ به القارئ في هذا الحديث هو شكه الملح في قيمة الأدب الجاهلي، فبعد التفكير

⁽¹⁾ طه حسين، مصدر سابق، ص 62.

⁽²⁾ محمد أحمد الغمراوي، النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي، المكتبة العربية بيروت، 1981، ص 233.

والتدبر انتهى به الأمر إلى شيء، إن لم يكن يقينا فهو قريب من اليقين، ذلك أن ما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة (1) بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهليين. (2) وقد كان الشك في الشعر الجاهلي بسبب أنه لا يصور الحياة الجاهلية، وبالتالي علينا التماسها في القرآن، هو الفكرة الجوهرية التي دار حولها كتابه.

3 - المبررات النقدية لاختيار منهج الشك الديكارتي:

تناول طه حسين أولا طبيعة المنهج الذي قرر اتباعه في دراسة الشعر الجاهلي، وهو منهج الشك الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر، ويقوم هذا المنهج على تجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه مسبقا، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه، وهو منهج كانت له نتائجه في تجديد العلم والفلسفة تجديدا، وتغيير مذاهب الأدباء والفنانين تغييرا خصبا ومستثيرا.

(1) يعلق الراجعي على استعمال طه حسين لمصطلح الانتحال بقوله: لقد غاب عن طه حسين استخدامه كلمة الانتحال بهذا المعنى بدلا من كلمة "نحل". فقال: "يقال: انتحل القصيدة: إذا ادعاها وليست له، ونحلته إياها نسبتها إليه كذبا، وطه حسين لا يستعمل في كتابه (الانتحال) إلا خطأ، كرر ذلك في نحو تسعين موضعا، وعليه فكان على طه حسين أن يستخدم كلمة نحل وليس انتحل."
(2) طه حسين، مصدر سابق، ص 65.

بهذا المنهج الذي اختاره لنفسه قطع ما بين دراسة الشعر الجاهلي، وبين المعارف المتداولة في أخبار الرواة من صلة، ليلتمس هذه المعارف وغيرها من الشعر بوصفه مرآة تتعكس عليها حياة الجاهليين، وبهذا يحاول أن يمتحن صحة الشعر الجاهلي ومدى استجابته لهذه الصورة التي تتعكس على مرآته، وانتهى إلى أن الأدب الجاهلي لا يمثل الحياة الجاهلية، وهو يريد أن يدرس هذه الحياة من خلال القرآن، ومن خلال الشعراء الذين عاصروا النبي وفي شعر شعراء جاؤوا بعده.

لقد لاحظ طه حسين عقم المناهج التقليدية في تنوير القارئ العربي خاصة حول المرحلة الجاهلية، لما دار حولها من جدل منذ العصر العباسي إلى اليوم، ورغبة منه في تطوير الأدوات النقدية العربية التي لم تبرح مكانها في ظل المناهج الدراسية التقليدية، ومحاولة منه في زعزعة المسلمات بهدف غرلة التراث الشعري، ارتأى أن ينهج منهج الفلاسفة الغربيين في استقصاء حقيقة الشعر الجاهلي، هذا المنهج الذي أصبح مسلك الباحثين الفلاسفة وغيرهم في الغرب، حيث لم يعد هناك من يتجاهله لسعة إمكانياته البحثية القادرة على الوصول إلى الحقيقة المتوارية، ويلفت طه حسين القارئ في هدوء حتى لا يثير جدلا، لأنه أدرك شراسة المعركة منذ البداية فهو سيسلك في هذا البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة.⁽¹⁾ وتشهيرا بالمناهج السابقة وتعريضا بتقصير من

⁽¹⁾ طه حسين، مصدر سابق، ص 67، 68.

سبقه في استكناه الحقيقة المعرفية والعلمية، وغرلة التراث مما لحقه من اشتباه وتقول، يؤكد بأنه سيستعمل المنهج الديكارتى لأول مرة في الأدب العربي للبحث عن حقائق الأشياء الذي استعمل في أول العصر الحديث.⁽¹⁾ ويبين بأن هذا المنهج ليس خاصا في الأدب فقط، بل يصلح لعلوم أخرى ومعارف؛ فمنهج ديكارت ليس خصبا في العلم والفلسفة والأدب فحسب، وإنما هو خصب في الأخلاق والحياة الاجتماعية أيضا.

4- المرجعية التاريخية : مرجليوث ورواية الشعر الجاهلي:

ذهب مرجليوث إلى القول بأن ما يسمى بالشعر الجاهلي، من وضع الرواة في المائة الأولى من التاريخ الهجري، لأسباب سياسية واجتماعية ودينية وكان بذلك الفرض قد محى تراثا أدبيا ضخما عن حقبة تاريخية من حياة العرب الجاهلية، إذ أن فكرة وضع الشعر الجاهلي في العصر الإسلامي لدواعي دينية تستجيب لأهداف مرجليوث الذي كان يقصد من ورائها تأكيد بشرية القرآن الكريم، إذ كان يقصد بأن الذين وضعوا الشعر الجاهلي كانوا يقصدون إضعاف بنيته اللفظية والمعنوية، حتى يستقيم للمسلمين منهج المقارنة اللفظية لإثبات أن القرآن يسمو على كلام البشر.⁽²⁾ لقد أثرت مشابهة الرأيين في التجريح في أمانة طه حسين العلمية، لدرجة اتهامه بنقل آراء مرجليوث في كتابه في الشعر الجاهلي وكتاب

⁽¹⁾ طه حسين، مصدر سابق، ص 67،68 .

⁽²⁾ خير الدين هني، الرد على شبهات المستشرقين، مطبعة ع بن الجزائر، ط 1، 2005، ص216، 217.

أصول الشعر العربي القديم لأنه استفاد منه، ويمكن تقديم بعض الملاحظات على الباحثين:

❖ أن **مرجليوث** نشر بحثه سنة 1925، ونشر **طه حسين** كتابه سنة 1926 دون شك أن طه حسين كان قد أذاع هذه الآراء بتدريسه مدة طويلة للطلاب.

❖ انطلق كل من **طه حسين** و**مرجليوث** من منهج بعينه لدراسة الشعر وتقويمه، هوإن الشاعر ثمرة البيئة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وهو منهج يرى في الأديب بأنه مرآة تتعكس عليها تلك الحياة، وقد طبق كل واحد منهما هذا المنهج بصرامة في دراستهما لمشكلة الشك في الشعر الجاهلي، ومن الطبيعي أن يبحثا عن صورة الحياة في هذه المرآة، وهذا ما يعلل قصور الذي بين أيدينا على تصوير الحياة الدينية والاقتصادية، وقصور لغته في تمثيل لغة القبائل المختلفة في لهجاتها.

❖ أن آراء **طه حسين** لا تفهم من خلال كتاب واحد فقط، بل تفهم من كتبه ومقالاته التي نشرها ثم جمعها في كتاب حديث الأربعماء، ففي هذه المقالات يصبح **طه حسين** داعية لهذا الشعر يشرحه ويفسر معانيه ويكشف عن قيمه الفنية وكأنه لم ينكر الوجود الفعلي للشعراء، وهذا يدل على أنه كان يريد دفع الدارسين إلى تطوير مناهجهم في دراسة الأدب كما فعل الأوروبيون مع الآداب القديمة اليونانية والرومانية.

5- أسس منهج الشك الديكارتي:

إن القواعد التي يقوم عليها المنهج الديكارتي بالأساس، هي العقل والتجرد من كل الالتزامات السابقة، ويستند إلى جملة من القواعد التي تساعد الباحث في معالجة النصوص الأدبية وغير الأدبية للوصول إلى حقائق، بناء على فرضيات وتخمينات جاد بها الواقع سواء في شكل من الأشكال يدفع الباحث إلى التساؤل عن حقيقة الأشياء، سلاح الباحث في كل الأحوال العقلانية، ولهذا المنهج قواعد اقترحها ديكارت ليهندي بها العقل في الوصول إلى الحق وهي:

- ❖ ألا نقبل قط شيئاً على أنه حق من غير أن نكون على بينة من أنه كذلك، أي أن نتجنب العجلة والهوى، وألا نُضَمَّنَ قضايانا من الحكم أكثر مما يتمثل للعقل تمثلاً هومن التميز والوضوح بحيث لا يبقى لدينا للشك فيه مجال.
- ❖ أن نجزئ كل مشكلة نمتحنها إلى أكبر ما يمكن أو إلى ما يتطلبه حل المشكلة من الإجزاء.
- ❖ أن نسير في تفكيرنا على ترتيب ونظام مبتدئين بأبسط الأشياء وأسهلها معرفة لنرتقي بالتدريج إلى علم أعقدها.
- ❖ أن نقوم في كل حالة بتعداد هومن الكمال، وباستعراض هومن السعة، بحيث نكون على ثقة من أننا لم نفلت شيئاً (1).

(1) محمد أحمد الغمراوي، مصدر سابق، ص 122.

بالعودة إلى الكتاب نلاحظ أن فكرته الأساسية تقوم على رفض الشعر الجاهلي، انطلاقاً من المنهج الذي تسلح به منذ البداية وبشجاعة نادرة، فيصرح " أن الكثرة المطلقة من الأدب الجاهلي ليس جاهلياً وإنما منحول بعد الإسلام، فهو يمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر من تمثيله لحياة الجاهليين".⁽¹⁾ لقد توصل طه حسين بعد تطبيقه لمنهج ديكرت إلى أن الأدب الجاهلي منحول بعد الإسلام، فإلى أي درجة استطاع المؤلف تطبيق هذا المنهج؟

للإجابة عن هذا السؤال لابد من عقد مقارنة بين الشك كما مارسه طه حسين، صاحب "الأدب الجاهلي" والشك كما مارسه ديكرت صاحب "قواعد لهداية العقل". فنتبين أن ثمة farkاً أساسياً بين نوعي الشك، وهوان الشك الديكرتي يستهدف معرفة موضوع البحث معرفة تحيط بما هو جوهرى ويقيني فيه، في حين أن الشك في صحة الشعر الجاهلي يتسم بالطابع السلبي وينتهي إلى زوال البحث وتلاشيه، لقد سمي منهج الشك الديكرتي منهجياً لأنه على وجه التحديد مجرد أداة يصطنعها العقل بحرية ويستخدمها وفقاً لترتيب منطقي صارم وليكتشف ما نعرفه على نحو واضح لا يتطرق إليه أدنى شك.

أما شك طه حسين كما مارسه في دراسة الأدب الجاهلي، فهو أقرب إلى الشك الذي يملك نفس صاحبه ويستغرق فكره فينتهي به إلى إنكار موضوع البحث. لقد بالغ في تقدير الأسباب التي تدعو إلى الارتباب في صحة الشعر

⁽¹⁾ طه حسين، مصدر سابق، ص 65.

الجاهلي، فهو يرى أن الشعر الجاهلي لا يمثل ما كان للعرب قبل الإسلام من حياة دينية وعقلية واقتصادية وسياسية. لم يحاول البحث عن أي استثناء قد يخرج عن هذا التعميم وينفي صدقه... ومعنى هذا أن تفكير طه حسين في هذا المجال قد غلبت عليه الاعتبارات السلبية فاستسلم للشك وأهمل البحث عن دواعي اليقين.⁽¹⁾ ومن ثم كانت النتيجة التي انتهى إليها سلبية إلى حد بعيد وهي: " أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليس من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام..." لقد ادعى طه حسين أنه يستخدم منهج ديكرت ليغيب الأزهريين حين قال لهم أنهم لا يعرفون هذا المنهج... فالغرب معذرون حين ينسب بعض تلك القواعد إلى ديكرت.. فهو أول من أظهره عليها، ولكن ما عذر طه حسين حين ينسب إلى ديكرت منها سبقة إليه الغزالي، هل يرجع ذلك لجهل طه حسين لمذهب الغزالي. والواقع أن ديكرت مسبوق إلى ما عرف باسمه من قواعد النظر، سبقه الغزالي بقرون "فقد تبين أن ديكرت قد قرأ ترجمة كتاب "المنقذ من الضلال" للإمام الغزالي، وأشار على نسخته الخاصة الموجودة في مكتبته المهداة إلى السربون على الهامش أمام عبارة الغزالي عن (اتخاذ الشك طريقا إلى

⁽¹⁾ طه حسين وديكرت، عبد الرشيد الصادق محمودي، مجلة فصول، الأدب المقارن ج 2، المجلد الثالث، ع 4، 1983، ص 105 وما يليها.

اليقين)" (1) وقد تصدى له الغمراوي ليثبت أن ما قدمه **طه حسين** ليس هو منهج ديكارت، كما ترجم الأستاذ **الخصري** كتاب ديكارت "مقال عن المنهج" ليؤكد أن ما قدمه **طه حسين** ليس هو منهج ديكارت، وللاشارة فإن منهج ديكارت في يد **طه حسين** يقوم على مبدأ الهدم والبناء أو التفكيك والتركيب وذلك:

❖ بالشك في صحة الشعر الجاهلي ووصفه بالمنتحل ووصف الرواة بأنهم تجنوا على الحقيقة التاريخية.

❖ بإعادة النظر في الرؤية القديمة وذلك بإعادة الحثيات التاريخية التي تبرهن على عدم صحة هذا الأمر.

❖ بخلخلة البنية الفكرية لدى الدارسين، بهدف تحطيمها وبناء قارئ وباحث مستتير.

يعتقد **البيومي** أن **ديكارت** قد أخذ المبادئ التي بنى عليها مذهبه عن الإمام **الغزالي**، (2) حسب **الرافعي** وحسب الكاتب الفرنسي **شارل سومان** الذي يرى بأن

(1) أنور الجندي، نظرية ديكارت ومنهج الشك الفلسفي في كتاب الأدب الجاهلي، منار الإسلام، مجلة إسلامية ثقافية شهرية، تصدرها وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، الكويت، (مؤلفات في الميزان) ، ع 5، دت، ص 42 . 48.

(2) محمد رجب البيومي، موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي، المطابع الأهلية للأوفست الرياض، دت، ص 72.

السرقعة عن الغزالي واضحة، إلى درجة تكاد تكون العبارات واحدة والغزالي سبق ديكارث بخمسة قرون ونيف.⁽¹⁾

6 - الرويخ المناهج لمنهج الشك الديكارتي عند طه حسين:

لقد سبقت الإشارة إلى أنه لم يتعرض أي كتاب عربي لما تعرض له كتاب **طه حسين** " في الأدب الجاهلي " من نقد وردود أفعال غاضبة، وبسببه صنف الكاتب في خانة فكرية وسياسية جلبت له الكثير من المتاعب، والكثير من الشهرة أيضاً، صدرت هذه الردود تباعاً وبزخم كبير خاصة من مصر لأسباب سياسية ودينية كان لها دورها في تصريف الأمور في ذلك الوقت. لقد عرف كتاب "في الأدب الجاهلي حملة من النقد لفترة طويلة ظلت آثارها تلاحق الكاتب، ولكن في المقابل كان **طه حسين** أنصاراً عملوا على تثمين منهجه وأشادوا بشجاعته وإصراره على التغيير في مضامين ومناهج الثقافة العربية.

ويبدأ بتطبيق هذا المنهج على الأدب لأنه ليس وسيلة تدرس لنفسها من حيث هي سبيل إلى تحقيق غرض آخر، هي تدرس في رأي أصحاب الأدب القديم من حيث هي وسيلة إلى فهم القرآن والدين"⁽²⁾.

⁽¹⁾ محمد رجب البيومي، مرجع سابق، ص 72.

⁽²⁾ عبد العزيز شرف، طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله تونس، 1988، ص 64، 70.

يرد الدكتور عبد العزيز مقالح التهمة الباطلة الموجهة لظه حسين بأنه "يرمي إلى إنكار الشعر الجاهلي... ويدعو للانصراف عنه لأنه منحول ولا يمثل البيئة الجاهلية... وهي تهمة باطلة لعدة أسباب منها:

❖ أن الكتاب نفسه يحتوي على مجموعة من الافتراضات لا المسلمات، وقد كان منهجيا فيها.

❖ أنه لم ينكر الشعر الجاهلي ولا شكك في شعرائه إنما ردد نفس الحقائق التي ردها قبله ابن سلام الجمحي.

❖ أنه اختار تدريس الأدب العربي والشعر العربي، فالذي يحتقر شيئا لا يوقف حياته لتدريسه والبحث فيه.

وهي أسباب تدعونا إلى الجهر ببطلان التهمة الموجهة إليه... نعم إنه أزهرى في كل شيء لقد شغل جيله وأجيالنا وسوف يشغل الأجيال من بعدنا ربما لأنه استطاع أن يكشف الحل الأمثل للمعادلة الصعبة بين القديم والحديث بين الماضي والحاضر، ولأنه كان المثال الحي على العلاقة الخصبة بينه وبين الثقافتين القديمة والمعاصرة.⁽¹⁾

⁽¹⁾ عبد العزيز مقالح، طه حسين والتمرد على الطريقة الأزهرية، العربي، مجلة شهرية، ع 282، ماي 1982، ص 43 . 46.

ومن المبررات الأكثر حضوراً في عمل طه حسين هي مواجهة ذهنية الإنسان العربي في تعامله مع الواقع الذي هيمن عليه الجمود وترأخت الروح النقدية القادرة على تنوير هذا الواقع، وطرح بدائل فكرية بأدوات جديدة من شأنها عقلنة الحياة الأدبية وغير الأدبية، حيث "يبين أن منهج التغيير عند طه حسين يذهب إلى تغيير الأفق العربي، تغييراً يقوم على ما يسميه بعض الباحثين بالقدرة على "التقمص الوجداني" أو التفتح السمع، والتي تميز انتقال المجتمع من الشكل التقليدي إلى الشكل الحديث، الذي لا يرفض السلفية في التفكير الأدبي فحسب، ولكنه يرفض قيم المجتمع التقليدي التي "تدع كل شيء حيث تركه القدماء..."⁽¹⁾.

إن الأسباب الموضوعية التي أملت على طه حسين اختيار منهج ديكارت، هي أن الشعر بحاجة ماسة إلى منهج ديكارت، شأنه شأن أي باحث يمد يده إلى أدوات فاعلة أكثر إنتاجية، لأن الباحث في مسائل العلم والأدب والفلسفة لا يتجه إلى موضوع ما ليبحثه إلا إذا شغله ورأى فيه عدداً من الثغرات يحب سدها. (2) غير أن طه حسين لم يلتزم تماماً بمذهب ديكارت، ويشير إلى ما سيسلكه في بحثه فيما يتعلق بعملية الهدم التي سيمارسها على الأدب الجاهلي. وما تتطلبه من صبر وجلد واستبعاد للعواطف القومية والدينية. بمنهج الشك المدمر للماضي

⁽¹⁾ عبد العزيز شرف، مرجع سابق، ص 150، 152.

⁽²⁾ محمد رجب البيومي، مرجع سابق، ص 67.

العربي، وأن حداثة المنهج لا تفي بالغرض المطلوب، لأن جودة النحو من البحث لا تكفي لإعلاء شأن التأليف.

المسألة التي يبحث فيها **طه حسين** عن الجديد هي مسألة البحث العلمي الذي يتوخى الحقيقة لا غير، أو قل أن الرجل وضع نفسه في خيار صعب للغاية ما دام قد شق عصا الطاعة وتجاوز المؤلف، الذي لا يزيد على أن يضع الباحث التقليدي مجرد تابع يأتى بالسلف حتى ولو لم يكن صالحاً أو قل صائباً" فلست أريد أن أقول بالبحث، وإنما أريد أن أقول الشك، أريد ألاّ نقبل شيئاً مما قال القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان".⁽¹⁾

مما أثار حفيظة نقاد **طه حسين** ومعارضيه هو طعنه في التراث العربي، وهو الرجل المطلع الذي يعلم أن القدماء لم يدونوا الأخبار والأشعار والتواريخ اعتباراً دون نظر وفحص، فإذا جئنا إلى كتب الأدب العربي وهي ما عناه الدكتور بالبحث، فإننا لا نجد إجماعاً على جميع الأقوال... ولكننا نرى أمهات المصادر الأدبية تحفل بالمناقشة والمراجعة وتؤيد رواية وتضعف أخرى، وتنفي الشعر عن مصدر لتلقه بمصدر آخر،⁽²⁾ وبنفس اللهجة المدينة يتعرض **محمد لطفي جمعة** لطبيعة المنهج الذي انتهجه المؤلف ويعيب عليه العمل به، ليس على

⁽¹⁾ محمد رجب البيومي، مرجع سابق، ص 62.

⁽²⁾ محمد رجب البيومي، مرجع سابق، ص 23، 24.

اعتبار أن منهج ديكارت لا يصلح للباحث المسلم، بل لأن طه حسين مولع بالشك وحب التمرد لزعة الكثير من الثوابت والقيم الأدبية والدينية الراسخة التي لم يحدث أن امتدت إليها يد الهدم أو الشك حيث "يرى أن طه حسين اختار ديكارت:" لظنه أن ديكارت إمام المتشككين وأنه هو شديد الشغف بالشك لذاته، لا لكونه وسيلة لليقين على حد قولهم "الشك أول مراتب اليقين... إن مؤلف الشعر الجاهلي شغوف بالشك لذاته لتمام الموافقة بينه وبين مزاجه وعقله".(1)..

وفي نظره فإن هذا المنهج " يبعث على القلق والاضطراب وينتهي في كثير من الأحيان إلى الإنكار والوجود".(2) وفي شيء من التناقض يرى بأن هذا المنهج التشكيكي يجعل المؤلف أمام نقطتين:

❖ الأولى وغايتها أن ديكارت ليس من الفلاسفة المتشككين كما ظن مؤلف الشعر الجاهلي، إن نحو طه حسين في الشعر الجاهلي "أوحى للكثيرين أنه مستوحى من أعمال ديكارت... لأن الصلة التي تربطه بديكارت صلة عابرة في اتصال أعم بين طه حسين والحضارة الأوروبية الحديثة التي جوهرها النقد ومظهرها الرأسمالية... فالمقصود هو الوعي النقدي الغربي لا الحديث وليس شخص ديكارت، ولم تكن قضية المنهج فيما يبدو لي أهم القضايا التي شغلت طه حسين وإنما كانت المشكلة الأهم كسر عمود الفكر العربي، "فقضية المنهج

(1) لطفي جمعة، الشهاب الراصد، مطبعة المقتطف والمقطم مصر، ط1، 1926، ص17.

(2) لطفي جمعة، مرجع سابق، ص62.

هي قضية شكلية من شأنها أن تجدد شكل عقل لا مضمونه وكما أنه لا يوجد منهج ديكراتي لا يوجد كذلك منهج نستطيع أن نلصق به طه حسين⁽¹⁾.

7- منهج ديكرات عند طه حسين بين الشك واليقين:

انطلق طه حسين من المنهج الديكراتي المبني على الشك للوصول إلى اليقين، ووصل من خلاله إلى الشك في الشعر العربي الجاهلي عامة، وهو يتعرض لظاهرة النحل عند الأمم الأخرى اليونانية والرومانية، ليصل إلى نتيجة هي أن العرب كغيرهم من الأمم الأخرى التي حدث عندها النحل. ويمكن قبول هذا الكلام من الناحية النظرية البحتة، وهو كلام قديم قدم الشعر نفسه، إلا أن الشيء الذي يمكن النظر فيه، هو اعتماد المنهج الديكراتي من جهة، وكذا الاعتماد على بواعث الشعر الجاهلي بالاختلاق والصنعة من جهة أخرى. فوجود البواعث ليس مبررا لرفض الشعر الجاهلي، لأننا في هذه الحال نكون قد أنكرنا كل ما قام به نقاد الشعر القدماء، وتمحيصهم للشعر الجاهلي وغيره. أما اعترافهم بصعوبة العملية فليس مبررا كافيا لطرح كل جهودهم، والحكم على الشعر الجاهلي بأنه منحول كله أو جلّه.

بيدوان الشك الديكراتي لا يمكن أن ينقل إلى ميدان كميدان تاريخ الأدب، ويظل منهجيا بالمعنى الدقيق للكلمة، فمنهجية الشك الديكراتي ترجع إلى ما فيه

⁽¹⁾ وائل غالي، ديكرات الغائب عن طه حسين، مجلة القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر، ع 159، فيفري 1996، ص 102.

من نظام وتسلسل بحيث ينتهي إلى مرحلة اليقين، ولكن "الحديث عن شك منهجي في هذا المجال لا بد أن ينطوي على شيء من التساهل والتخفف في تعريف الفكرة".⁽¹⁾ ويعزز طه حسين اختياره مشيراً إلى أن هذا المنهج يقوم على الموضوعية، وهو في نظرنا تعريض بالمنهج السائد في بيئته، الذي يتبناه التقليديون من أنصار النزعة الاعتقادية، إن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث مما كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاماً، ورغم سخط أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر، فقد كان هذا المنهج من أخصب المناهج وأقواها، وأنه جدد العلم والفلسفة تجديداً فهو بذلك الطابع المميز لهذا العصر.

ويرى بأن أنصار القديم أصحاب المنهج الظني الاعتقادي يصعب عليهم إدراك أسرار هذا المنهج، بحكم أنهم خاضعون وراسفون في أغلال القديم، لذا فهو يطلب من "الذين لا يستطيعون أن يبرءوا من القديم ويخلصوا من أغلال العواطف والأهواء، حين يقرءون العلم أو يكتبون فيه ألا يقرءوا هذه الفصول"⁽²⁾.

يرى عبد العزيز شرف في هذا المذهب بأنه منهج تغييرى يسعى إلى "تحرير العقل من سلطة الآخر المتحكم في عملية التفكير، والذي يصادر الحريات

⁽¹⁾ طه حسين وديكارت، عبد الرشيد الصادق محمودي، مجلة فصول، الأدب المقارن ج2، المجلد الثالث، ع 4، 1983، ص106.

⁽²⁾ طه حسين، مصدر سابق، ص 70.

والآراء ويلغى وظيفة المنلقي وحقه في الأسئلة، يرفض تقديس القدماء والسلف وإنما ينظر إليهم ... أنهم مثلي ومثلك يجدون ويمزحون، يحسنون ويسئون⁽¹⁾ فكأن هذا المنهج وسيلة من وسائل الاستراتيجية الحضارية يتوسل به **طه حسين** من أجل تغيير المجتمع القديم، وقيمه التي تقف بالأفق العربي في مكان دون الأفق الأوروبي، ولو كان **طه حسين** على بينة من خصائص البحث العلمي لما غفل عن أن أهمها هو التقيد بالحقائق، لا التخلص من العواطف⁽²⁾ وحتى وإن تباين منحى كل من **ديكارت وطه حسين** في طبيعتهما وبيئتهما وثقافتيهما وتوظيفهما للمنهج، فإن **ديكارت** فيلسوف وطه أديب ومؤرخ للأدب، وهي فروق فلسفية كبيرة كون **ديكارت** استعمل المنهج للشك في الوجود والعالم، بينما **طه حسين** لم يكن ليشتك في وجوده الشخصي أو وجود العالم من حوله، بل كان يكفيه أن يصرف هذا الشك إلى الموضوع، مما جعل هذا الشك يتخذ لديه صورة شك في صحة الشعر الجاهلي، بدلا من أن يكون موضوع هذا الشك الذات والعالم كما هو الحال عند **ديكارت**، وإن كان رأي **طه حسين** هذا قد أثار جدلا انتهى بمصادرة كتابه "في الشعر الجاهلي" وبعض مؤلفاته الأخرى بمعنى مصادرة رأيه ومنهجه وحقه في الاختلاف مع غيره في الرأي، ومن ثم كان مصيره العزل من الجامعة مع ما كان من مناصرة الرجل من قبل النقاد الأحرار المستنيرين . حسب رأيه . الذين

⁽¹⁾ طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، عبد العزيز شرف، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله تونس، 1988، ط 2، ص 64.

⁽²⁾ محمد أحمد الغمراوي، مرجع سابق، ص 128.

تخندقوا معه في العقلانية الديكارتية.⁽¹⁾ إذ يرى الكثير من مؤرخي الأدب ونقاده بأن الرؤية المنهجية التي اختارها طه حسين أو التي انطلق منها وانحاز لها، ما تزال تشكل أهم إسهام قدمه الفكر العربي الحديث في مواجهة المجتمع التقليدي، فلن يبلغ المجتمع العربي أهدافه في التحديث والمعاصرة، إلا إذا أنجز العقل العربي والمجتمع العربي تحقيق تلك الرؤية المنهجية في قلب الحياة العربية، بدءاً بتحديث المجتمع الذي لا يتحقق إلا بتحديث وساطات الحياة⁽²⁾، إن تصريح طه حسين أنه سيطبق منهج ديكارت دليل على أنه تأثر بديكارت، لكن ليس لهذه التصريحات أي قيمة، المهم أن يثبت أنه فعلاً طبق المنهج الديكارتى، وقد أثبت ذلك، صحيح أن روح المنهج الديكارتى التي تتجسد في الشك تظهر في نقده للشعر الجاهلي، كما استطاع أن يطبق نظرية ديكارت شكلاً، بقواعدها الأربع ولكن النتيجة التي توصل إليها من أن الشعر الجاهلي منحول ليست حقيقة علمية مطلقة لا تدحض. فكيف نفسر اتباع طه حسين لمنهج عقلي وعدم توصله للحقيقة العلمية، نعتقد أن الدراسة كانت مشوهة من طرف الباحث نفسه منذ البداية لأنه قصر في البحث في حقيقة الأدب الجاهلي، ولم يرد إعادة بناء تاريخ هذا الأدب

⁽¹⁾ مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، تصحيح محمد سعيد العريان، دار الكتاب العربي بيروت، ط7، 1974، ص 187.

⁽²⁾ قضايا وشهادات، كتاب ثقافي دوري، طه حسين العقلانية الديمقراطية الحداثه، مؤسسة عيال للدراسات والنشر، دمشق ص82، 83، 84، ينظر تفاصيل هذه النقاط ص 84 - 92.

بطريقة الإخوة كروازيه في تعاملهما مع تاريخ الأدب اليوناني، منطلقا فقط من جملة افتراضات ومن شك لازمه منذ سنين طويلة كما يقول هو عن نفسه.

خاتمة:

لقد توصل طه حسين إلى نتيجة قليلة القيمة، سبقه إليها العلماء في القرن الأول والثاني، فهي ثمرة تافهة مقابل جهود كبيرة، فقد خاض معركة نقدية وكان يمتلك أسلحته العلمية في ذلك والدليل أن كتابه في الأدب الجاهلي لا يزال يدفع الدارسين إلى البحث والنقاش ولا يزال يتناوله الدارسون على اختلاف آرائهم وميولاتهم.

المصادر والمرجع:

المصادر:

1 - طه حسين، في الأدب الجاهلي ، دار المعارف، مصر، ط2، 1962.

المراجع:

1 - أنور الجندي، نظرية ديكرت ومنهج الشك الفلسفي في كتاب الأدب الجاهلي، منار الإسلام، مجلة إسلامية ثقافية شهرية، تصدرها وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، الكويت، (مؤلفات في الميزان)، ع 5، (د ت).

2 - خير الدين هني، الرد على شبهات المستشرقين ، مطبعة ع بن الجزائر ، ط 1، 2005 .

3- طه حسين وديكرت، عبد الرشيد الصادق محمودي، مجلة فصول، الأدب المقارن ج 2، المجلد الثالث، ع 4، 1983.

4 - طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، عبد العزيز شرف، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله تونس، ط 2، 1988.

5 - عبد العزيز شرف، طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله تونس، 1988.

6 - عبد العزيز مقالح، طه حسين والتمرد على الطريقة الأزهرية ، العربي، مجلة شهرية، ع 282، ماي 1982.

- 7- قضايا وشهادات، كتاب ثقافي دوري، طه حسين العقلانية الديمقراطية الحداثة، مؤسسة عييال للدراسات والنشر، دمشق ص 82، 83، 84.
- 8 - لطفي جمعة، الشهاب الراصد، مطبعة المقتطف والمقطم مصر، ط1، 1926.
- 9 - مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، تصحيح محمد سعيد العريان، دار الكتاب العربي بيروت، ط7، 1974.
- 10 - محمد رجب البيومي، موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي، المطابع الأهلية للأوفست الرياض، (دت)، (دط).
- 11 - محمد أحمد الغمراوي، النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي، المكتبة العربية بيروت، 1981.
- 12 - وائل غالي، ديكارت الغائب عن طه حسين، مجلة القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر، ع 159، فيفري 1996.